النخبة الصناعية في الجزائر : معطيات وتحاليل

د. إلياس شرفة جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة- الجزائر

ملخّص :

إن سوسيولوجية النخبة الصناعية في العالم العربي وخاصة تلك ذات الأصل الأوروبي قد حددت مجال تحليلها من خلال محورين كبيرين، الأول يغطي الثنائية التي أصبحت مألوفة والتي تقسم النخب إلى تقليديين وعصريين، والثاني يدرس علاقة كلا المجموعتين حيال السلطة السياسية.
وفي الحالة الأولى والتي ميزت خاصة طريقة التناول الفرنسية، فقد تم التطرق وتحليل العلاقات بين المجموعتين الفرعيتين المكونتين للمجموعة الأم والمسمّاة بالنخب. أما في الحالة الثانية والتي ميزت طريقة التناول الأنجلوسكسونية فقد تم وضع كل المجموعة الأم في علاقتها مع السلطة السياسية. ففي الحالة الأولى كان البحث مركزا خاصة على تحديد الخصائص الاجتماعية الثقافية لكل مجموعة فرعية، ونوعية العلاقات (نزاعية أم لا) التي تقيمها كل مجموعة فرعية مع الأخرى، وفي الحالة الثانية، فقد تم الاتجاه نحو دراسة مستوى إدماج هذه " النخب " ضمن السلطة السياسية.

1) الأصول والانتماءات الطبقيّة :

إذا ما تحدّثنا عن النخب في الجزائر، يتعلق الأمر إذن بمحاولة رسم نوع من الطبولوجيا للمجال الاجتماعي الثقافي (الحالة الفرنسية) أو الثقافي السياسي (الحالة الأنجلوسكسونية) معتمدة على مبدأ تحليل " علاقات القرب " بين وحدات تنتمي لنفس المجموعة أو مجموعات مختلفة، وهكذا فقد تم تحديد هذه الوحدات أو علاقاتها فيما بينها أو علاقاتها إزاء السلطة السياسية، وفي أحين وضعية الاقتراب.
لكن ما هي هذه الوحدات نفسها، هذه النخب، هؤلاء النخب الصناعيين التقليديين أو العصريين ؟
القليل من الدراسات فقط تطرقت لمسألة أنطولوجية الوجود الاجتماعي لهذه المجموعات، لمسألة اندماجها ضمن المجتمع المدني.
فقد سيطرت الوضعية هنا سيطرة كلية، كما انغمست الدراسات بسذاجة في التراث الأمبريقي لميدان بحث مهذار، فقد تم التطرق إلى الأنساب والتاريخ، إلى الإحصاء والبيبلوغرافيا، كما وضعت منهجيات دقيقة لحصر موضوع لم تطرح حوله الأسئلة الأساسية والمتعلقة بشروط إمكانية، إن الأدلة السوسيولوجية لوجوده متوفرة فهي كثيرة ومتنوعة، معطيات إحصائية، كتب ...، ولم تكن هناك حاجة لطرح السؤال حول مسألة وجوده الأنطولوجي، وهي نفسا لطريقة التي ردّ بها علماء الفاتيكانو الذين كانوا مهتمين بمتابعة الكواكب " حول " الأرض على غاليلي الذي كان يرى أن هذه الحركة الظاهرة ما هي إلا نتائج تقوم للرؤية بإخفاء النظام الحقيقي والفعلي.
إن هذا الرفض لهذه السوسيولوجيا والتي ما هي إلا شكل خاص للوضعية في علم الاجتماع هو الذي دفعنا إلى إعادة طرح مسألة النخب الصناعية متسائلين في البداية عن شروط وجودها، وعن إمكانياتها، قبل الدراسة الميدانية للأشكال الأمبريقية لانتشارها في المجال الاجتماعي والزمن التاريخي، وعلى هذا المنوال لابدّ

من البحث عن الأدلة الأنطولوجية لوجود النخب الصناعية في اتجاه المجتمع المدني، لأننا نعتقد أن علاقة هذا الأخير بتلك هي علاقة جوهرية " بكل ما تحمله الكلمة، لأنها تكوينية النخب عموما بحدّ ذاتها، كفئة اجتماعية منتجة " أو معيدة لإنتاج دلالات ومعاني اجتماعية ضروري ينظر له ويتقبل على هذا الأساس من قبل الفئات الاجتماعية الأخرى. ومن هذا المنظار، فالمثقفون الذين يعيشون في وسط مغلق لا يكونون نخبة وذلك مهما كان ثراء إنتاجهم، نفس الشيء بالنسبة لجماهير المتخرجين وأصحاب الشهادات الجامعية الذين لا يكونون مثقفين، ومن باب أولى لا يكونون نخب إذا لم تفعل المعرفة المتراكمة فعلها في النظام الدلالي الرمزي للمجتمع.

إن جانب الممارسة هنا له أهمية أكبر من الجانب المعرفي. إن أشكال المعاني المذكورة لا تتوقف على تجانسها أو منطقها الداخلي بقدر ما تتوقف على فعاليتها الاجتماعية، أي بمعنى آخر بقدرتها على أن تكون مشتركة بين أكبر عدد من الأشخاص لتوجيه ممارساتهم الاجتماعية. ومن هذا المنظور فإن خرافة أن الأرض جالسة فوق قرني ثور، في نفس الوقت الذي تكون مثل هذه المعتقدات ذات انتشار واسع لدى أغلبية الجماهير، فإن هذه الخرافة تشارك في النخبة أكثر من أي عالم اجتماع صاحب بحوث جيدة لكنها ليست مقروءة إلا من قبل زملائه[1].

يمكن أن نسمي " جاذبية " أو " عضوية " قدرة مجموعة من المثقفين أو النخب الصناعية على إنتاج وإعادة إنتاج معنى اجتماعيا، أي مجموعة أفكار ذات دلالات اجتماعية في مقدورها بالتالي من تكوين وتوجيه كل أو جزء من المجتمع المدني الذي تتواجد فيه هذه المجموعة، أي أنها تساعد على توجيه ممارسة اجتماعية[1].

انطلاقا من هذا التساؤل الأساسي والذي يكون موضوع دراسة النخب الصناعية، يمكن أن تتمفصل تساؤلات أخرى، من ذلك مثلا طبيعة إنساق الدلالات المنتجة (الإيديولوجيات) وتوزيعها الاجتماعي (منطق طبقي أو متعدد الطبقات ...) العلاقات التي تقيمها فيما بينها مختلفة الأنساق (تخالف، توازي، تضاد، ...)، ذريعة اقترابها إلى المراكز السياسية للقرار، شروط إنتاجها وإعادة إنتاجها (جامعات، مساجد، مجموعات سرية، ...) ووسائل جسمتها (الإعلام الرسمي، السينما، التلفزيون، الكتب، الشرائط).

نعتقد أنه انطلاقا من هذا التساؤل يمكن أن تكون هناك سوسيولوجية النخب أي تلك الدراسات الإمبريقية وغير الإمبريقية لنشأة وهيكلة قنوات المعاني التي تكون النسق الرمزي للمجتمع والذي يعطيه هويته الخاصة.

عند تحليل النخب الصناعية لابد من التفريق بين مستويين متطابقيين لهذين البعدين الأساسيين، كذات مثقفة، فالنخبة تنتج أو تعيد إنتاج نسق أفكار وتمثيل يمكن أن يكون مجالا لتحليل محتواه وذلك بهدف نسبه وتجانسه الداخلي، عقلانيته وعلاقته مع الأنساق الأخرى، خصائصه النظرية الكاملة، عصريته أو تقليديته، دينيته أو علمانيته[2].

وكوجود اجتماعي فلابد على النخب الصناعية أن تنتج معاني ودلالات أي أفكار لها معنى اجتماعيا، وذلك زيادة على إنتاجها للأفكار، وعلى التحليل هنا أن يقيس مدى البعد الدلالي لهذه الأفكار أي مستوى جاذبيتها، وهنا لابدّ من الإشارة أنه لا توجد علاقة ميكانيكية بين النتائج النظرية لأي نسق أفكار ونتائجه الدلالية، بين نجاسة المنطقي وجاذبيته الداخلية، فالأفكار الصحيحة تستولي بالضرورة على الجماهير، في حين أن أفكارا غير متجانسة يمكن أن تكون لها فعالية اجتماعية أكثر مما هو منتظر، فالنازية والتي تعتبر من الوجهة النظرية العلمية والمنطقية

زيغا لا يمكن تصديقه تمكنت من جذب وراءها ملايين من الناس اعتبروا عقلانيين، في نفس الوقت الذين كانوا يعتقدون فيه في عقلانية هذه الإيديولوجية، فقوة جاذبية فكرة اجتماعية ما لا تقاس بصحة جوهرها كما أن عضوية النخب الصناعية لا يمكن ردها إلى درجة عقلانية نسق الأفكار المنتجة لها.
عند تحليل نخبة صناعية معينة، لابد من أن نفرق بين هذين المستويين وبالتالي لابد من الانتشار المتوازي بين هذين المستويين، مستوى الأفكار ومستوى الدلالات أو المعاني، المستوى النظري والمستوى العضوي، إنها الرؤية التي يمكن بها دراسة الحالة الجزائرية.

2) دور ومكانة الجامعة :

لقد غدت الجامعة في العصور الحديثة وفي الكثير من البلدان النواة الأساسية في خلق النخب، فبالنسبة للجزائر المستعمرة ورغم الطابع الغامض للجامعة الجزائرية في ذلك الوقت، فقد استطاع الطلبة الجزائريون لعب دور مهم في تشكيل ثقافة وطنية كانت ضرورية لحركة التحرير الوطنية، إلا أن الأمور قد تغيرت كثيرا بعد أكثر من عشرين سنة بعد الاستقلال، فنحن بعيدون عن معطيات الوضعية الاستعمارية، والأرقام هنا لتأكيد ذلك.

في سنة 1954 قبيل اندلاع حرب التحرير في الجزائر، كان هناك ألف خرّيج جامعي من ضمنهم 354 محامي، و 165 طبيب، صيدلي، وطبيب أسنان، و 350 موظف (من ضمنهم 185 أستاذ ثانوي) وحوالي 100 ضابط في الجيش الفرنسي وأقل من 30 مهندسا، في حين كان أقل من 14% من السكان الجزائريين يعرفون القراءة والكتابة من ضمنهم الربع فقط باللغة العربية[3].
عشرون سنة بعد ذلك عرف الوسط الثقافي تغييرا جذريا، فهناك ست ملايين طفل في مختلف مستويات التعليم وحوالي 200 ألف طالب جامعي، وحوالي 10 آلاف أستاذ جامعي، و20 ألف أستاذ في مختلف مراحل التعليم الأخرى، و15 عشر ألف مهندس.
إن التقهقر الثقافي الذي خلفه الاستعمار الفرنسي يقضي عليه حتى وإن كانت نسبة الأمية لازالت تقارب 50%[4].
من علامات هذه المرحلة الآن أن المتخرجين خاصة ذوي التخصصات الاجتماعية لا يجدون عملا بعد تخرجهم، وفي أحسن الحالات يحصلون عليه بصعوبة كبيرة، في حين كان الحاصل على شهادة البكالوريا المسلم في الجزائر المستعمرة يعتبر مثقفا من أعلى المستويات، إن هذا التطور الكبير والسريع في عدد المستفيدين من المنظومة المدرسية بجميع أنواعها، والجامعي كان به تأثير مباشر في " نشر الأنوار والرفع من المستوى الثقافي الاجتماعي " بصفة عامة إلا أن من مفارقات هذا الوضع غير المنتظرة هو التغيير الذي حصل في دور الجامعة الذي كانت تقوم به في المجال الثقافي الوطني.
وبالفعل فإن خريجي الجامعة الجزائرية بفعل عددهم الكبير نسبيا لم تعد تلك المكانة السابقة التي كانت لأسلافهم في خريجي الخمسينات والستينات، فالتطور الكمي الكبير الذي عرفته المنظومة التعليمية أدّى إلى ابتذال منتوجها وهي الشهادات الجامعية وبالتالي حامليها من خريجي الجامعات.

حاملو الشهادات هؤلاء الذين تواضعت مستويات مطالبهم وخاصة تلك المتعلقة باعتبارهم كجزء من المثقفين، فحاليا لا يعتبر الخريج من الجامعة جزءا من المثقفين لأن هذه الصفة لا تمنح إلا لعدد قليل من الأشخاص، وهذا الوضع الذي أدّى إلى فقدان هيبة الشهادات الجامعية، حتى وإن لازالت تمنح وضعا اجتماعيا معينا فإنها أساسا لا تمنح الحق في اعتبار حاملها مثقفا، فالجامعة الجزائرية لم تعد المعون الوحيد للمثقفين في الجزائر. إن هذا الابتذال الذي عرفه وضع خريجي الجامعات كان له نتائج أخرى على مستوى إبعاد الجامعيين عن مراكز القرار السياسي، فقبل الاستقلال وفي سنواته الأولى ومن جراء ندرتهم كان خريجو الجامعة مطلوبين كثيرا لممثلي السلطة على المستوى المحلي أو المركزي، هذا الوضع كان يجعل المثقفين يقومون بدور " مستشاري الأمير " إن تعلق الأمر بمسؤولي السلطة على المستوى المركزي المحلي أكانوا في الحزب أو الإدارة أو أي مركز قرار آخر.

ومن جراء هذا الاقتراب من السياسي فإن الجامعيين كانوا " مسيّسين " وينظرون لهذا البعد السياسي كامتداد طبيعي لوظيفتهم. إن هيبة الجامعة كانت لدرجة أن السياسيين أصحاب الشرعية التاريخية الأكيدة، كانوا في بعض الأحيان في حاجة للدخول للجامعة للحصول على هذه " الشرعية الجامعية " والتي أصبحت ضرورية للعمل السياسي، وقد رأينا في هذا الصدد بالذات آلاف المناضلين السابقين في جيش التحرير الوطني وحزب جبهة التحرير الوطني يتسابقون عند الخروج من العمل السري نحو مقاعد الكليات الجامعية.

فالابتذال الذي عرفه خريجو الجامعة من جراء عددهم لا يجعلهم يطمحون إلا في دور " الكاتب " لدى ممثلي القرار السياسي، هذا إذا لم يتقربوا في نشاط تنفيذي ذي مهارات معينة، ونتيجة لذلك فإن البعد السياسي لعملهم لم يعد موجودا ولا يظهر إلا في الدفاع عن مصالحهم الفئوية، فقد كانوا إطارات للثورة ثم الأمة، أما الآن فلم يصبحوا إلا موظفين مؤهلين ضمن مجتمع أكثر تعقيدا.

إن النتيجة الأولى للتطور الثقافي الكبير الذي عرفته الجزائر المستقلة يبدو للعيان على مستوى التغيير الذي عرفه دور الجامعة من جراء تغيير مكانتها ضمن المجال الثقافي للمجتمع، فبعد أن كانت النواة الأساسية للعمل الثقافي الوطني قبل الاستقلال وفي سنواته الأولى لم تصبح الآن إلا جهازا عاليا للتكوين يحاول قدر الإمكان تحقيق وظيفية اقتصادية واجتماعية أكثر من أي ادّعاء آخر في جميع نخب البلاد حولها.

فمن المفارقات أن الجامعة من خلال ديمقراطيتها وجمعتها قد فقدت هيمنتها الثقافية التي استطاعت أن تكون لها في المجال الثقافي للمجتمع.

إن فقدان الهيمنة هذا كان من النتائج غير المنتظرة لسياسة التعريب التي طبقت ابتداء من السبعينات، هذه السياسة التي غيرت كثيرا من المجال الثقافي للمجتمع، وفي هذه الحالة بالذات فنحن جد بعيدين عن الفترة الاستعمارية التي كانت فيها اللغة العربية تدرس بطريقة سيئة وكلفة أجنبية ولا تكتب إلا من قبل أقل من 4% من الجزائريين، هذا الوضع أدّى بأحد الملاحظين الاستعماريين الأجانب إلى الصراخ قائلا : " إن لغة هذه البلاد لا تحتل أي مكانة ضمن المنظومة التعليمية الرسمية لدرجة أن الكثير من الطلبة الأهليين لا يعرفون التكلم أو الكتابة بلغتهم الأم ".

لقد تمت المحافظة على اللغة العربية كلغة عصرية من خلال مدارس جمعية العلماء المسلمين التي كان تمول من قبل المجهودات الخاصة، وذلك رغم العراقيل التي فرضت عليها من قبل الإدارة الفرنسية[5].

أما بعد الاستقلال فقد كانت مهمة استرجاع مكانة اللغة العربية من المهام الكبرى التي نفذت بضجة كبيرة وتولدت عنها نتائج كمية كبيرة كذلك.

إن نتائج العملية لم تكن كلها إيجابية، فإن كانت قد حطمت احتكار النموذج الفرنسي المسيطر من منابع انتشاره، فإنها لم تكن قادرة على إنتاج منافس بحيث أن دعاة التعريب كانوا يستلهمون وسائلهم ومثلهم من الدول العربية التي بقيت هي الأخرى تابعة لمستعمريها السابقين.

إن تملك الجامعة للغة العربية قد أدى إلى انخفاض في المستوى الثقافي لأدائها البيداغوجي (التربوي) من دون أن يفضي ذلك إلى القضاء الخارجية التي أتت مع التجارب العربية، وأكثر من ذلك فإن الوضع الجديد لم يقض على الصراعات أو حتى تخفف منها والتي كانت موجودة في الفترة الاستعمارية بين " النخبة التقليدية " المكونة في المدارس والجامعات العربية (الزيتونة في تونس، القرويين في فاس والأزهر خاصة) و " النخبة العصرية " المكونة في المنظومة التعليمية الفرنسية بكل مستوياتها ومنها النخبة الصناعية.

بل إن الأدهى من ذلك أن هذه النزاعات قد تضخمت وانتشرت في القطاعات الأخرى التي كان تعريبها أكثر بطأ، فهكذا نجد أن القطاعات الاقتصادية التي لازالت تسير أساسا باللغة الفرنسية لازالت رافضة للمتخرجين المعربين وبعيدة كل البعد عن تأثير الجامعة. إن هذا الواقع قد أوجد تقسيما يمكن أن يؤدي إلى تقوقع للمجال الثقافي المعتمد على الجامعة بتقسيمها إلى مجموعتين، الأولى وتمثل العلوم الإنسانية المعربة والثانية تحتوي على العلوم الطبيعية، والمدعوة إلى الإفلات من سيطرة اللغة العربية حتى وإن كان ذلك جزئيا، إذن علوم وضعية باللغة الأجنبية وعلوم معيارية باللغة العربية، باختصار مهندسون مفرنسون وعقائديون معرّبون.

إن ديناميكية إعادة تملك اللغة الوطنية قد تجاوزت بنتائجها حدودها وتولد عنها انقسام النظام الجامعي، فالمنطق النزاعي الذي يسير العملية والمعتمد أساسا على الفرز اللغوي يقسم حسب محاور متباينة ليس فقط تخصصات مهنية ولكن كذلك معايير وقيم مختلفة. فالجامعة التي كان منتظرا منها أن تكون نواة مفضلة في خلق نخب انقسمت إلى مجموعتين لا توجد أي إمكانية حقيقية حاليا للتوفيق بينهما، بل أكثر من ذلك فإن شساعة البعد الذي يفرق المجموعتين والذي دعم أكثر من خلال الصراعات الفئوية (تقسيم اقتصادي واجتماعي مختلف لكل مجموعة) والسياسة الإيديولوجية (شرعية تقنية للمهندس واجتماعية للطبيب وأخلاقية للمؤرخ)، إن هذا البعد إذن قد تواصل أكثر من خلال الحياة العملية التي قوقعت كل مجموعة في قطاعات معينة (الثقافة والتعليم والإعلام للمجموعة الأولى، والصناعة والفلاحة والهياكل القاعدية للثانية)، إن هذه المؤازرة تمنع أو على الأقل تعرقل كل إمكانية للحوار الجدلي، فكل مجموعة تنتشر حسب منطقها الخاص وانطلاقا من مبدأ النفي للآخر : فالمعيارية المتكررة للمجموعة الأولى تتلامس دون لقاء، اللهم في مواجهة ربما براغمتية الثانية[6].

إن عملية الانقسام هذه التي يعيشها النظام الجامعي ستؤدي على المدى الطويل إلى حدوث عملية تحطيم ذاتي للجامعة كممون ذي وضع رئيسي للمثقفين ضروري لتكوين نخب، فالمجموعة الأولى قد أنتجت فعلا مؤشرات موجهة، أشخاص حاملين

لنسق معاني لكنه يسير في الفراغ لأنه ضعيف الالتصاق بالممارسة المباشرة للمجتمع والثراء الأمبريقي لنشاطه، إنهم دلالات من دون مدلول، أي تسيير حسب موعظة " لابد أن تكون " لاتعلم كائن موجود فعلا اللهم على شكل عشوائي لتصورات غامضة وعاجزة عن التحول إلى معرفة.

أما فيما يخص المجموعة الثانية فهي مستمرة في إنتاج أطباء ومهندسين ومسيري مؤسسات لكنها لا تقوم بذلك إلا من أجل أهداف تقنية تعاش هكذا من دون شرعية اللهم " فائدتها الاجتماعية " بكماء فيما يخص الجوانب الأخرى، أشخاص إذن حاملين لتأهيل تقني فعلي لكنهم عاجزون عن تحويله إلى نسق معاني ودلالات " بالمفهوم الاجتماعي أي مدلولات بدون دلالات "، وإذا قمنا بمقارنتهم بالمجموعة الأولى فإنهم كائنات موجودة فعلا " لكنهم لا يعلمون وبشكل لابد أن تكون إلا على شكل تلفيقي، في الحالتين إذن نحن أمام أنصاف مثقفين كل منهما مبتور على نصفه الآخر، محمول من خلال المنطق النزاعي للنظام الجامعي[7] على الانتشار انطلاقا من توزيع المهام – تقنيين من جهة وعقائديين من جانب آخر – عاجزين عن القيام بأي إمكانية للوصول إلى نسق عضوي " وبالتالي التحول إلى مثقفين.

إن تطور النظام الجامعي الجزائري وصل إلى الحد هيكليا من إمكانياته لإنتاج مثقفين، كان يمكن أن يكونوا النواة النشطة لنخب وطنية. إن تطور الحركات الاجتماعية الموجهة من قبل الجامعة الجزائرية أو المنشطة من قبلها ذو دلالات عن التغيير الذي عرفه مكان الجامعة في المجال الثقافي الوطني والتحول الذي طرأ على دورها.

بصفة عامة، يمكن أن نميز منذ الاستقلال أربع أزمنة تاريخية خلال هذه الفترة القصيرة :

1.2) الزمن السياسي : والذي تميز من دون نشاط للجامعة في النضالات السياسية التي رافقت استقلال الجزائر والتي استمرت حتى بداية السبعينات، فالجامعة الجزائرية المتوفرة على نقابة ديناميكية ذات علاقات وطيدة مع النقابات العمالية والفلاحية شاركت إلى جانبهم في النضالات من أجل التمييز الذاتي والحريات النقابية، كما قامت بتدعيم نضالاتها الخاصة من أجل كل أنواع الحريات ومن ضمنها حريات الحرم الجامعي[8].

2.2) الزمن الاقتصادي : والمتميز هو الآخر بالتزام نشاط للجامعة لكنه موجه هذه المرة بنحو المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي برزت مع الثورة الزراعية والتسيير الاشتراكي للمؤسسات. لقد ضيعت الجامعة نقابتها (الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين)[9] واستقلاليتها التي ناضلت من أجلها كثيرا، لكن المنظمة الجديدة (الاتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية) سمحت لها بالظهور في المدن والأرياف، كما ظهرت كذلك في ميادين جامعية أخرى كاللجان البيداغوجية والندوات الوطنية ...[10]

3.2) الزمن الثقافي : والذي يبدأ عند بداية الثمانينات، والذي برز من خلال الصراعات العنيفة بين الطلبة أنفسهم ... العلمانيين ضد الإسلاميين، البعثيين ضد البربريين، ...، هذه الصراعات الطلابية التي وجدت تجاهلا من قبل المجتمع المدني المتعب من جراء صعوبات الحياة اليومية[11].

4.2) الزمن الأخير والذي يمكن أن نصفه بأنه زمن السلبية المطلقة، فالجامعة من خلال نفيها لدورها كنواة نشيطة للنخب بشكلها السياسي الاقتصادي أو الثقافي قد دخلت ضمن الصفوف لمواجهة الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع المؤسسات الأخرى.

بالطبع إن هذا التطور الذي عرفته الجامعة الجزائرية كان يمكن ألاّ يكون بهذا المستوى من المأساوية بل كان يمكن أن يكون عاديا إذا أنابت عن الجامعة في دورها الأوحد في مد النخب بالمثقفين مؤسسات أخرى وذلك للقيام بنفس الدور، فنكون بذلك قد انتقلنا من النظام الموروث عن فرنسا والذي استمر حتى السبعينات والمتميز بالاحتكار الكلي للجامعة للمجال الثقافي الوطني إلى نظام آخر أكثر تنوعا وأكثر توازنا، وبالطبع أقل مركزية.

لكل شروط كثيرة كان لابد من توفيرها حتى تكون مثل هذه الإمكانية قابلة للتحقق، شروط يرجع البعض منها إلى النخب أنفسهم، وأخرى متعلقة بالمجتمع المدني، والأخيرة ذات صلة بالدولة والنظام السياسي، لكن للأسف فإن هذه الشروط لم تتوفر بالنسبة للجزائر مما أدّى إلى القضاء على العلاقة المتميزة بين جامعة – نخب، بل أكثر من ذلك إلى عدم توفر إمكانية بل استحالة إيجاد نواة أخرى لاستقطاب المثقفين، ليرى بالتفصيل هذه الشروط الثلاث.

3) النخب الصناعية والتماثل الثقافي الوطني :

ألفت العديد من الكتب التي تناولت التأثير الثقافي لاستعمار فرنسا للجزائر وخاصة منها تلك التي تناولت مسألة استثمار القدرات اللغوية للمجتمع الجزائري[12].

مع بداية هذا القرن، وبعد سبعين سنة من النهب الاستعماري، كانت القلة القليلة من الجزائريين فقط تعرف القراءة والكتابة باللغتين العربية والفرنسية، حتى الذين كانوا يعرفون أو يحسنون اللغتين لا يمثلون إلا فئة جد محدودة لا جذور لها بحيث كانت منقطعة عن باقي أفراد الشعب لا لشيء إلا لأنها تعرف الكتابة.

إن النخب الصناعية الأولى في الجزائر العصرية آنذاك هم تلك الفئة التي كان البعض منها يعرف كتابة اللغة الفرنسية والبعض الآخر يعرف كتابة اللغة العربية، إلا أنه لا هذا ولا ذاك كان يجيد التكلم ولا الكتابة بلغة المجتمع. كانت لهذه القطيعة أو لهذه العزلة تأثيرات جد خطيرة ومأساوية ليست فقط على تطور المجتمع بل خاصة على النخب الجزائرية.

في الوقت الذي كانت فيه اللغات واللهجات المحلية تفتقر يوما بعد يوم من حيث المحتوى والترتيب – حتى أصبحت عاجزة بأن تعبر عن الواقع – كانت عربية " جمعية العلماء " أو عربية المصلحين تتعالى عن اللغة الشعبية بنوع من الاحتقار، بل وترفض حتى التعامل معها[13]، في هذه الظروف كانت جاذبية اللغة الفرنسية السبب في إبعاد متكلميها وكتاتيبها وانسلاخهم عن أصلهم الشيء الذي أدى إلى عدم قدرة البعض على الكتابة ولا حتى النطق باللغة الأصلية للمجتمع[14].

النخب الجزائرية الأولى منذ البداية عرفوا الانفصال والانسلاخ عن مجتمعهم بفقدان الارتباط العضوي المتمثل في " الحبل السري " الذي لا يمكن أن يتمثل في غير اللغة. لقد أدى هذا الانفصال إلى هروب فئة المثقفين بحيث التجأ بعضهم إلى أبطال شرق الأوسطين بحثا عن لغة " تقليدية " لغة العصر الذهبي وبحثا عن قيم وطرق تمكنهم من فرض أنفسهم في الحقل العلمي الجزائري – دون أن يتم ذلك

عن طريقة التغلغل والانغراس داخل المجتمع المدني – أما البعض الآخر فراح يستمد ويتعرى من التراث الثقافي لفرنسا وقيمها لعله يجد ما يساعده على مكافحة الاستعمار الفرنسي. إن هذه الفئة الأخيرة لم تستطع التغلغل داخل الوعي الوطني الجزائري.

كان هم العلماء الوحيد (جمعية المصلحين) هو محاولة إصلاح المجتمع عن طريق محاربة الفكر الخرافي، وبعث الإسلام، دون أن يحاولوا فهم واستيعاب المجتمع من الداخل، أما الفريق الثاني فراح يتحاور مع المستعمر الفرنسي راجيا من وراء ذلك تخفيف وتلطيف القمع المسلط على الجماهير. وبالنسبة للفريقين بقيت الجماعة الوطنية كائنا ثقافيا العلامة العمياء لنظرتهم، بحيث لم يتمكن لا هذا ولا ذاك من رؤية هذا الكائن الثقافي[51].

وباسم سلطة الكتابة أي معرفة كتابة اللغة، وليس باسم الاندماج العضوي الثقافي كان الجميع يدعي تمثيل الشعب والتكلم باسم المجتمع.

إنه لمن المدهش حقا أن نلاحظ – طيلة المرحلة الممتدة ما بين بداية القرن لغاية اندلاع ثورة التحرير الوطني سنة 1954 – أن المجتمع الجزائري – لم يعرف يقظة ثقافية مثل تلك التي رافقت صعود الوطنية وظهورها في البلدان الأخرى[16].

إن الجزائر لم تعرف بوشكين ولا قوقول، أو أولئك الذين قاموا بثورة اللغة الروسية، ولا الرومنسيين الألمان الذين أعطوا لأمتهم الآداب النبيلة والأصيلة، كما أن الجزائر لم تعرف لوسين، أي أولئك الذين قلبوا أوضاع الكتابة وثوّروا لغة بلادهم، ليس فقط لتصبح لغة وطنية عصرية بل لتصبح لغة عالمية.

إن اختلاف نخبنا في الجزائر عن نخب البلدان الأخرى، يرجع حسب اعتقادنا إلى مدى اختلاف ارتباط هذا وذاك بمجتمعه وبعده الثقافي، وكذا لغته وقيمته[17].

4) النخب الجزائرية تعالج الأفكار :

انطلاقا من نماذج مستعارة شرقا أو غربا، بعيدة عن واقع مجتمعه، فإن النخب الجزائرية هي منتجة لإيديولوجيات منطلقة من : ما يجب أن يكون، وأما نخب المجتمعات الأخرى فتصنع وتبني معاني انطلاقا من أدوات مجتمعية وثقافية محلية، وهم بهذا –أي النخب- يتواجدون كنخب تسوغ وتبلور ثقافتنا الوطنية من موسيقى وشعر وقصة انطلاقا مما هو موجود فعلا بمجتمعاتهم.

لقد كان لعضوانية النخب الجزائرية، خلال هذه الحقبة الزمنية تأثيره السلبي ليس فقط على تطور المجتمع الجزائري وإنما على النخب نفسها[18].

وبناء على ما سبق ذكره، استسلم نسبيا المجتمع المدني لنفسه وأصبح ينشر بعده الثقافي حسب ديناميكية حددتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية من جهة، والقلة القليلة من التراث المتبقي والذي لم يدمره الاستعمار الفرنسي من جهة ثانية.

كان للمجتمع الجزائري حينذاك أبطاله وقيمته، بحيث واصل إعادة إنتاج أنماطه الثقافية من موسيقى وشعر وعبادة الأولياء وممارسة الدين ... أي كان يخلق ثقافته الخاصة به والتي أصبحت هي بدورها مغايرة ومختلفة عن ثقافة المثقفين لكونها " ثقافة شعبية ".

وهناك إذن ثقافتان تطورت كل واحدة منها بجنب الأخرى، وكانت الكتابة هي السبب في الفصل بينهما، أي بين ثقافة شعبية منطوية على نفسها، ومعزولة في بعض الأقاليم والمقاطعات محدودة في مآثر القبائل وعادات العشائر ولغة متحجرة وجامدة تحولت إلى لهجة إقليمية طغت عليها الإيطالية والإسبانية والفرنسية، وبالتالي أصبحت نائمة في السلفية ومتشبثة بالمنطق التكراري الذي يعد نفسه شبيها بالغريق الذي يتوسل النجدة. ثم أصبحت هي بدورها ثقافة " للمقاومة " بغية الحفاظ على نفسها[19].

أما بالنسبة للنخب الجزائرية، فكان عليها دفع ضريبة عضوانيتها، لقد قاموا بالتخلي عن الحقل الثقافي الثري والواسع وكنموه من أفكارهم، تلك الأفكار التي افتقرت إلى الدلالات الاجتماعية وافتقرت التأثير والممارسة العملية.

وتميزت النخب بعجزهم عن تحويل إنتاجهم الفكري إلى ثقافة، وبعدم القدرة على أن يتحولوا هم أنفسهم إلى نخب. فعلا لم تكن هناك الوساطات الضرورية لهذا التحول إلا أنه كان من الضروري إيجادها وخلقها، وهذا بإعادة توجيه شامل لنظرتهم المحورية وضرورة تثوير وتغيير آفاقهم، وهذا ما لم يتوصلوا إلى تحقيقه ويظهر ذلك جليا من خلال كتاباتهم حيث نلتمس فيها فقدان الوعي بالانتماء للجماعة المحلية. هذه الأخيرة كانت ممثلة في كتابات المثقفين وكأنها مجموعة فقيرة عديمة الوعي والحيوية في حاجة إلى الدعم الخارجي.

الشعبيون الروس قاموا بدورهم عندما ناضلوا من أجل الترقية الاجتماعية للشعب ورفعه إلى رتبة الفئة العلياء والراقية. والرومنسيون الألمان مجدوا وعظموا تاريخ أمتهم حتى جعلوه أسطوره، كما أن محبي هنود أمريكا ومساندهم بجلوا ومجدوا مآثر الأزتيكين وجميع النازيين قديما في المكسيك، أما إذا عدنا إلى النخب الجزائرية فنجدهم قد مارسوا نشاطهم داخل المجتمع الجزائري بنوع من التذليل والشعور بالنقص، ورغم النكسات العديدة والمتكررة التي عرفها الاستعمار فقد كانوا دائما يحطون من قيمة مجتمعهم ويحتقرونه، لم يؤمنوا أبدا بقدرات مجتمعهم ولا بحيوية تطوره، بحيث كان همهم الوحيد المناقشة والمجادلة في الظلام، وبدلا من البحث عن أدوات ممارستهم محليا التجؤوا خارج مجتمعهم المحلي بحثا عنها.

كانوا ينظرون إلى المجتمع وكأنه هدف يجب الوصول إليه وإصلاحه، وليس كقاعدة أساسية لانطلاق الممارسة. وهم –أي النخب- إما متشبثون بالعروبة أو الإسلام وإما بفرنسا أو حتى بأوروبا، إلا أنهم لم يكونوا متشبثين " بجزائريتهم ".

في الوقت الذي كان فيه بلزاك يطوف الضواحي والقرى الفرنسية، وعندما كان قوقول يدرس بدقة فلاح " الأرواح الميتة " أو بيروقراطي " المعطف " وعندما كان كذلك رومنسيو ألمانيا يعيدون بدقة تشكيل سلالة أساطيرهم، كان النخب في الجزائر يبحثون عن نماذج سعودية أو فرنسية يطبقونها في مجتمعهم، هذا المجتمع الذي كانوا ينظرون إليه برؤية المصلح لا أكثر.

لقد كانت النخب في الجزائر يتميزون بالانقطاع والانفصال عن المجتمع بسبب معرفتهم للكتابة. ومما زاد هذه القطيعة حدة وبعدا هي طبيعة رؤية النخب الخاطئة لمجتمعهم، وكذا طبيعة الأدوات المستعملة لإنتاج أنسقتهم الفكرية، كل هذه العوامل كانت السبب في هشاشة المثقفين وسهولة ذوبانهم.

وباعتبارهم فئة اجتماعية، فقد كانوا يعيشون على هامش المجتمع المدني وفي مجال ضيق منحته لهم الإدارة الفرنسية علما أن هذا المجال يتميز بالعزلة وعدم الارتباط بالمجتمع[20].

فهم بالنسبة للإدارة الفرنسية ليسوا محرضين أو مثيرين للفتن، وبالتالي لا يجب مراقبتهم مراقبة مشدّدة، أما بالنسبة للمجتمع المدني فهم " مثقفون " لا يمكنهم الاحتكاك بأفراد الشعب لأنهم لا يشعرون بما يشعر الشعب. وبحكم موقفها كفئة مثقفة وبحكم أسلوبها وتصرفاتها فإنها ترفض الرجوع إلى الثقافة المحلية وبالتالي فهي منتجة لأفكار لا يمكن أن يقال عنها إلا أنها عقيمة وجامدة.
وزيادة على ذلك، فإن تطور المجتمع وحيويته تجاوزت بكثير فئة النخبة التي لم تهتم إطلاقا لا بتطور ولا بحيوية هذا المجتمع. كان هم النخبة الوحيد هو المجادلة والمناقشة حول مكانة الجزائر ضمن الإمبراطورية الفرنسية[21].
وفي الوقت الذي كانت فيه النواة الوطنية الأولى تناقش مسألة الاستقلال، كان ينبغي عليهم سبق الأحداث لكونهم نخبة مثقفة، ولكنه لم يحصل ذلك.
لقد طال تأخرهم لمدة جد طويلة عن الأحداث وتميزوا بالذيلية، حتى كسحتهم وحستهم الأحداث الهامة وقضي عليهم كنخب نتيجة تصاعد وتطور الوطنية والقومية الحديثة.

5) النخبة والدولة:

إن الغياب النسبي للنخبة الجزائرية في التجربة الوطنية كان بمثابة السبب الرئيسي لضيق وقيد البعد الثقافي للحركة الوطنية ومجالها السياسي، الشيء الذي أدى بالنظام السياسي، نظرا لأصله وتطوره، أن ارتاب من المثقفين وأن يحتقرهم ويراقب نشاطهم.
ولكونهم خدم الثورة فعليهم الاستمرار في خدمة الدولة. إن هذه النظرة "الوظيفية" لدور النخبة التي التزمتها المرحلة الثورية أصبحت مسألة وهينة يتعذر الدفاع عنها بعد الاستقلال بالنسبة للجميع.
ونظرا لانعدامها على نخبة، تمكنت الدولة م الاستحواذ على النخبة لخدمتها، حتى وإن هم ليسوا بنخب، نظرا لافتقارهم معايير النخبة بحيث أصبحوا لا يصلحون لأي خدمة.
لقد أصبحوا موظفين لا ينتجون الأفكار ولا المعاني ولا الدلالات. إن استرقاق الكبار وإكراههم أمام الهجمة الثورية وديناميكيتها كانت السبب في ذلك. وهكذا وبعد مرور اللحظات الثورية ازداد استرقاقهم وعقمهم.
إن نخبة الجيل الثاني الأكثر شرفا واستقامة قد التجؤوا إلى صمت وعزلة السفارات أو المصانع، فهم يدرون ببراعة شؤون العلاقات الخارجية وتقنيات الإنتاج، وأما بشأن القضايا الأخرى فلا يتجرأ أحد على التدخل فيها.
أما بالنسبة للجيل الجديد فقد غرق داخل الوظيفة الموروثة عن أجداده معتقدا بكل سذاجة شكل وجوده الاستثنائي.
لقد اقتصرت وظيفة هذا الجيل الجديد في القالب الذي خططه النظام البيروقراطي بكل دقة قصد تدمير أوضاع وعوامل النخبة، وهكذا أصبح هذا الجيل عبارة عن قناة قولبها النظام البيروقراطي[22].

- **الخلاصة:**

لقد فقدت الدولة إمكانية الهيمنة الثقافية على الجماهير باسترقاقها النخبة وخضوع هذه الأخيرة لها.
تلك هي المتغيرات العميقة التي حققها المجتمع المدني منذ الاستقلال. إن الزوج المتمثل في الاستقلال والشعب فقد نشاطه الإيديولوجي كما فقد الحزب الوطني هيمنته على الجماهير.
وهكذا بعدما كانت نيابة النخبة ثانوية وهامشية أصبحت الآن ضرورية، وبدلا من أن يستمر التطور في هذا الاتجاه، يعيد حاليا النظام السياسي ويكرر تجربته الماضية بحيث يفتقد في آن واحد النخبة والمجتمع المدني، وفي هذه الظروف قامت العديد من التيارات المناهضة للتطور لتؤثر وتوجه المجتمع المدني بدلالات وممارسات يتعذر الجمع بينهما.
وللمرة الثالثة وجدت النخبة الجزائرية نفسها، وفي أقل من قرن، مضادة ومعاكسة لتاريخ مجتمعها[23].

• الهوامش:

(1) محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 22.

(2) محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية في الجزائر، مرجع سابق، ص 28.

(3) G. Perville : les étudiants algériens de l'université française, 1880-1962, p : 39.

(4) س. بدراني، استراتيجيات التنمية الاجتماعية في أفريقيا الشمالية، المركز الوطني من أجل الاقتصاد التطبيقي، الجزائر، 1986، ص 13.

(5) قدرت عدد المدارس المسيرة من قبل جمعية العلماء بـ 200 مدرسة وحوالي 35000 تلميذ. انظر فيما يخص دور العلماء كتاب ع. مراد : الإصلاح الإسلامي في الجزائر، 1925-1940، دار النشر موتون، باريس، لاهاي، 1967.

(6) مصطفى الأشرف، الجزائر : أمة ومجتمع، ترجمة : حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص : 26.

(7) إن كل الأنظمة الجامعية تنزع نحو إعادة إنتاج تقسيم المجتمع إلى قسمين، فالتخصصات الاجتماعية تتميز بمجموعة من المميزات تختلف بصاعد التخصصات التقليدية أي اختلاف المهندس عن الفيلسوف والأدبيين عن العلميين، لكن هذا الاختلاف يؤدي كما هو الحال في الجزائر إلى انغلاق وتقوقع كل مجموعة فرعية، حيث نجد مثلا الكثير من الفلاسفة ينطلقون من آخر الاكتشافات العلمية في الفيزياء وغيرها من العلوم الأخرى للتفكير، كما فعل ذلك أفلاطون لكن بوسائل عصرية في مواضيع مثل " الزمن " و " الحياة ". نفس الشيء بالنسبة لعلماء الاجتماع الذين ينطلقون كذلك في أعمالهم مستعملين لآخر الاكتشافات في حساب المجموعات الرياضية. فالمبالغة المرضية في تقييم العامل اللغوي لعب في الجزائر دور عائق إضافي زيادة على العراقيل الأخرى لجعل إمكانية الحوار صعبة بين المجموعتين.

(8) القراءات في هذه الفترة كانت مركزة حول مؤلفات م. الأشرف و في قانون منظري التسيير الذاتي، في حين أن النواة الديناميكية للجامعة في هذه الفترة كانت موجودة في كلية الآداب.

(9) الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين، وبث اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين رفض الأمر الواقع المتولد عن انقلاب 19 يونيو 1965 الذي قاده العقيد هـ. بومدين مما جعله يناضل على الجبهتين الأولى ولتحرير المساجين السياسيين وعلى رأسهم الرئيس السابق أحمد بن بلة، والأخرى م أجل المطالبة بحرية التنظيم.

(10) اقتصادية المرحلة جعلت كلية الاقتصاد هي مركز النشاط الجامعي مثلما جعلت مؤلفين مثل سمير أمين، ش. تبلهايم، ق. فرانك على رأس المؤلفين المقروئين، إنه زمن التنموية.

(11) المنظمة الجديدة (الاتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية) سمحت للنظام السياسي من تذويب الطلبة داخل مجموع الشباب، لكن وبفضل التطوع الطلابي الذي انطلق لتدعيم الثورة الزراعية سمح لهذه المنظمة من النشاط والاقتراب من بومدين.

(12) لقد سيطر موضوع الرجوع إلى الأصل كما توحدت كل المجهودات من خلال كتابة التاريخ والبحث عن الأصول مما جعل التركيز يتم حول م. حربي، ابن باديس وشخصيات النهضة، في حين أن الماركسية تركت مكانها للوظيفة كما سيطرت الاهتمامات الثقافية التي قامت بإهمال الاهتمامات الاقتصادية القديمة، وهو نفس مصير مراكز النشاط السابقة كليات الآداب والاقتصاد.

(13) محفوظ قداش : تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، مرجع سابق، ص : 48.

(14) مصطفى الأشرف، الجزائر : أمة ومجتمع، مرجع سابق، ص : 12.

(15) جمعية العلماء استمدت الكثير من التراث الإسلامي سواء للنهضة أو الحضارة الإسلامية، إلا أنها اقتصرت على أخذ وانتقاء العوامل الأقل حداثة وعصرية. تعلقت هذه الجمعية بشخصية عبد العزيز، مؤسس العائلة المالكة بالسعودية، كما كانت تستمد مبادئها من الوهابية أكثر من مبادئ جمال الدين الأفغاني الأكثر حداثة. وهكذا استمدت من الشرق عناصرها المحافظة محاولة في ذلك بعث الفكر السلفي.

(16) العدو اللدود لجمعية العلماء وهو بدون شك الجمعيات والزوايا الدينية ذات الممارسات الغيبية الخرافية. لقد كان العلماء يكافحون بكل شدة هذه الممارسات أكثر من كفاحهم أو مقاومتهم لسيطرة الثقافة الفرنسية.

(17) المقصود بالمقارنة هنا، من حيث البنية والانغماس في الواقع اليومي، المتمحور حول إعادة الاعتبار الثقافي لتاريخها وقيمتها الحاضرة.

(18) كتب أحد الصحافيين الجزائريين سنة 1930 عن هذه الوضعية قائلا : كم من مرة سمعت أفراد الشعب بما فيهم البرجوازية يشتكون بكل مرارة وأسف من موقف المثقفين الجزائريين، ويمكن تلخيص مأخذهم " لم يهتموا بالشعب وخانوا آمالنا وطموحاتنا وهم يفكرون إلاّ في تحقيق مصلحتهم من جمع المادة والعيش الرغيد، يشاهدون يوميا مآسينا ولا يحركون ساكنا : كأنهم ليسوا من لحمنا ودمنا ".

(19) Mohamed Ben Sia-in : La voie des Humbles. Citée par Kaddache, Tome 1, p.209,

(20) من ابن باديس إلى عباس فرحات، مرورا بابن حبيلس والطاهر بن جلون، نلاحظ ونلتمس دهشة المثقفين آنذاك بالفقر الاجتماعي والثقافي للجزائر، ذلك ما عبر عنه جليا أ. ميمي في موضوعه (كره الذات) الذي نجده يتكرر بطريقة واخزة في أغلبية كتابات المثقفين الجزائريين سواء بالعربية أو بالفرنسية.

(21) من بين الخمسين صحيفة ذكرهم ز. احددان في دراسته، تاريخ الصحافة الأهلية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، فإن معظم الكتاب عاشوا مرحلة قصيرة بسبب مصادرة الصحف والحجز الإداري وسجن المحررين ... ونستطيع أن نذكر بأن غالبية النخب الجزائرية قد فضّلوا هذا النوع من التداخل بدلا من الانغماس في أوساط الجماهير الأمية.

(22) الحركات الثورية، كانت عادة مصحوبة بغليان ثقافي ساعدها على التوسع والانتشار، وهذا ما وقع خلال الثورة الفرنسية 1789، والثورة البلشفية 1917، والثورة الكاسترية بأمريكا اللاتينية وكذا بالفيتنام، كل هذه التجارب عرفت مساهمة النخب في الممارسة الثورية وطليعتها، وهذا ما لم يحدث في الجزائر، إنها فعلا ظاهرة شاذّة. ويكون من المفيد القيام بدراسة سوسيولوجية مقارنة بين سوسيولوجية حزب التحرير ومنظمة التحرير الفلسطينية المناقضة تماما في هذا الميدان للتجربة الجزائرية.

(23) عند تحديده لدور النخب، طلب وزير الثقافة الجزائري إيصال خطاب الثورة إلى الجماهير، لقد أخطأ في تحديد المرحلة وذلك أن الخطاب لا وجود له والثورة قد تغيرت تماما.